للتاريخ السياسي

أسباب التسليم

للدكتور يوسف هيكل

في ميونيخ هزمت الديمقراطية آلم انهزام ، وانتصرت الدكتاتورية أعظم انتصار . خسرت فرنسا وبريطانيا نفوذهما السياسي ، وتضعضع مركزهما الدولي ، وانتقلت السيادة الأوربية ، في هذه الأيام على الأقل ، من يدهما إلى يدي الفوهرر هتلر والدتشيو موسوليني . لذلك نعت اتفاق ميونيخ بأنه « اتفاق الذل والهزيمة » ووصف بأنه « الحد الفاصل بين عالمين » . فما هي العوامل التي أرغمت فرنسا على قبول هذا الانهزام ؟ وما هي الأسباب التي دعت المستر تشمبرلن إلى التسليم لمشيئة الفوهرر هتلر ؟ .

على أثر اتفاق ميونيخ ثار الرأي العام في تشيكوسلوفاكيا ساخطاً على فرنسا ، ومتهماً إياها بالخيانة ، وملقياً عليها مسؤولية ماأصابه من انهزام وذل وفقر ، وما أصاب بلاده من تمزيق وضعف . وأصبح الشعب التشيكوسلوفاكي يبغض الحكومة الفرنسية ، صديقته الحميمة ، بغضاً لامزيد عليه . حتى أن الظواهر الفرنسية ، من مؤسسات علمية وطائرات وسيارات ، في تشيكوسلوفاكيا ، التي كانت قبل اتفاق ميونيخ تثير احترام الشعب التشيكوسلوفاكي لفرنسا وإعجابه بها ، أضحت بعد اتفاق « الذل والهزيمة » تثير البغض لحكومة باريس والحقد عليها . وعمل الشعب التشيكوسلوفاكي وحكومته على الابتعاد عن فرنسا ، وقطع الصلة بها ، وطمس آثارها في بلاده . ولتحقيق ذلك أبدلت البلديات أسماء الشوارع الفرنسية بأسماء تشيكية وألمانية ، وألغت حكومة براغ تدريس اللغة الفرنسية في مدارسها كلغة إجبارية ، واستعاضت عنها باللغة الألمانية ، وقطعت عن المعاهد العلمية الفرنسية في بلادها ما كانت تقدمه لها من مساعدات مالية . واستبدلت دور السينما التشيكوسلوفاكية بالأفلام الفرنسية أفلاما ألمانية ...

فهل كان الرأي العام التشيكوسلوفاكي مصيباً في اعتقاده خيانة فرنسا له ؟

منذ اشتداد المشكلة التشيكوسلوفاكية ورجال الحكم في باريس يعلنون أن فرنسا ستقف بجانب حليفتها . ولتأكيد ذلك اتخذت الحكومة الفرنسية ، حين اشتداد الأزمة السياسية بين برلين وبراغ ، إجراءات حربية واسعة المدى . وكان كل شيء ، النية والعزم والعمل ، يدل على أن الحكومة الفرنسية جادة في قولها ، لا تود ترك حليفتها تذهب ضحية اعتداء ألماني . وكان ذلك رأي الجيش في فرنسا أيضاً ، إذ أن رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي ختم التقرير الذي قدمه لحكومته بقوله : « إن الصعوبات كثيرة ولكن يجب أن نمشي »

وبينما كانت فرنسا جادة في استعداداتها الحربية للدفاع عن تشيكوسلوفاكيا ، أعلمتها وزارة خارجية انكلترا أن آلاف الرسائل التي تلقاها المستر تشمبرلين من سائر أنحاء الممالك المتحدة ، تحتم عليه إنقاذ السلم على أي حال ، وأنه يعتبر ذلك دليلاً على أن الرأي العام البريطاني غير مستعد لخوض غمار الحرب من أجل تشيكوسلوفاكيا . فأدركت الحكومة الفرنسية أنها لن تستطيع الاعتماد على الحكومة الإنكليزية ، وأن ثباتها قد يكون مقامرة خاسرة . ووجدت نفسها في آخر الساعة في ظروف لا تمكنها من الإصغاء إلى رأي الجنرال كاملان ، فاضطرت إلى التسليم ، وإلى أن تسير مع انكلترا موافقة على ما عزم عليه المستر تشمبرلين . لأن القوى الفرنسية وحدها ، مع عظم أهميتها ، لا تستطيع مقاومة القوى الهائلة المتأهبة للحرب في بلاد الدكتاتورية

وأما سياسة حكومة لندن ، وتصريحات رجالها فكانت تدل على أن الحكومة البريطانية لا تريد الوقوف بجانب حكومة براغ ، مدافعة عن حقوقها ، وصادة التوسع الألماني في أوربا الوسطى . بل كانت هذه السياسة ، وهذه التصريحات دالة على أن حكومة لندن عازمة على عدم خوض غمار الحرب ، وعلى تسوية النزاع الألماني التشيكوسلوفاكي بأي ثمن كان ، تلافياً للحرب ، على رغم ما في ذلك من انهزام شنيع وأخطار فادحة لها ولحليفتها فرنسا

* * *

لم يضح المستر تشمبرلين في ميونيخ بما أوجدت السياسة الفرنسية خلال عشرين عاماً من قوى دفاعية فعالة ضد الاعتداء الألماني ، ولم يُمكن رئيس وزارة انكلترا ، الفوهرر هتلر من السيطرة على أوروبا بتسليمه بمطالبه في تشيكوسلوفاكيا ، حباً في السلام فقط ، بل هناك أسباب قاهرة دعته إلى هذا التسليم . وهذه الأسباب تنقسم إلى قسمين : الأول منهما يتعلق بمسائل حربية ، والثاني يتصل بعوامل نفسية نفعية

إن الدولة الكبرى الوحيدة التي نزعت فعلاً سلاحها فيما بعد الحرب العظمى هي بريطانيا العظمى . ويرجع ذلك إلى سياسة حزب العمال ، الذي كان يرأسه المستر رمسي مكدونالد . وكان المستر مكدونالد يأمل أن تحذو الدول الكبرى حذو بلاده فتنزع سلاحها غير أن أمله لم يتحقق ، ففرنسا لم توافق على نزع سلاحها لأنها كانت واثقة أن في نزعه خطراً على سلامتها وخطراً على أوربا أيضاً ، لأن الدول الأخرى لن تنزع سلاحها . وبالفعل فإن إيطاليا الموسولينية أخذت تبذل كل قواها في التسلح على أنواعه ، وتبعتها في هذه الخطة ألمانيا الهتلرية . فأصبحتا أعظم الدول الأوربية تسلحاً . فسياسة نزع السلاح العملي التي سار عليها المستر رمسي مكدونالد في انكلترا أدت إلى إضعاف بريطانيا العظمى حربيا ، وإلى تشجيع الدول الدكتاتورية على التسلح العظيم

وبرغم أن بريطانيا العظمى قد ابتدأت في التسلح منذ أن تسلمت الحكومة القومية إدارة سياسة البلاد فأصبح لا يستهان بقوى سلاحها ، فإنها لا تزال غير متسلحة التسلح الكافي الذي يمكنها من خوض غمار الحرب

وزيادة على ذلك فإن مدنها وسواحلها خالية من التحصين ضد الغارات الجوية. فهذه المدن وهذه السواحل تكون عدفاً لغارات الطائرات الألمانية ، فيما لو نشبت الحرب العالمية من جراء الشكلة التشيكوسلوفاكية ، وتوقع غارات العدو فيها أضراراً فادحة ...

ثم إن الحالة في المستعمرات الإنكليزية غير هادئة ؛ وكانت حكومة لندن تخشى أن تحدث اضطرابات في بعضها ، وتشب نار الثورة في الآخر ، إن هي اشتبكت في حرب أوربية فتصبح هذه المستعمرات سبب ضعف لها ، بدلاً من أن تكون عامل قوة

وبينما كانت الوزارة البريطانية في وسط معمعة الأزمة التشيكوسلوفاكية ، أبلغت دائرة استخباراتها المستر تشمبرلن سرا أن الحكومة اليابانية متأهبة لاجتياح الأملاك الإنكليزية في الشرق الأقصى حال اشتباك القوى الانكليزية والفرنسية في حرب مع ألمانيا . ولهذه الغاية كانت اليابان قد أبقت القسم الأعظم من أسطولها بمعزل عن الحرب الصينية . وهو ، في تلك المياه ، يضارع في القوة أسطول انكلترا أو الولايات المتحدة . وكانت اليابان تفكر في إيقاف حربها الصينية ، حين وقوف حرب أوربية تشترك فيها بريطانيا ، وإبقاء أقل من نصف مليون من الجند في القسم الذي افتتحه من الصين للمحافظة عليه ، والزحف بجيش عظيم مدرب نحو الجنوب ، والانقضاض على هنغ كنغ وسنغافورة ومقاطعات مالاي والهند واستراليا ، وضربها ضربة قاسمة بسرعة لا تدع مجالا للدفاع عنها .

وقد أدرك المستر تشمبرلن أن الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا المأزق ، وإبطال الخطة اليابانية ، فيما لو وقعت الحرب ، هو إقناع الولايات المتحدة بإرسال أسطولها إلى المحيط الباسيفيكي ليكون رادعا لليابان عما تبغي الإقدام عليه . غير أن الولايات المتحدة أظهرت حينئذ أنها لا تريد العدول عن خطة الحياد ، والابتعاد عن المشاكل الأوربية .

ويريد بعض الكتاب السياسيين تعليل تسليم بريطانيا وفرنسا في مونيخ ، إلى اعتقادهما أن روسيا لم تكن عازمة على دخول الحرب بجانبهما ، بل إن غرضها كان إيقاد نار الحرب دون أن تصطلي بلظاها ، رغبة منها في إشعال لهب الثورة . وهذا القول خال من الصحة ، لأنه إذا غضضنا النظر عن تصريحات المسؤولين في موسكو بعزمهم على تنفيذ واجباتهم نحو تشيكوسلوفاكيا إذا قامت فرنسا بواجباتها نحوها ، نرى أن مصلحة الروسيا كانت تقضي عليها بدخول الحرب بجانب بريطانيا وفرنسا ضد ألمانيا ، لضمان انتصار الدول الديمقراطية ضد الدول الدكتاتورية . أما تمكين الدول الدكتاتورية من الانتصار على بريطانيا وفرنسا فمعناه هيمنة ألمانيا التامة على أوربا . ومعناه أيضاً فسح المجال للجيوش الألمانية للهجوم على بلاد الروس وتمزيقها ، وتحقيق منهاج الهر هتلر من نزع أوكرانيا وغيرها من المقاطعات الروسية وضمها إلى الريخ

أما العوامل النفسية التي ساعدت على التسليم في مؤتمر مونيخ ، فمنها أن الرأي العام البريطاني في الممالك المتحدة وفي المتلكات البريطانية كان ضد الحرب ، لا حباً في السلم فحسب ، بل اعتقاداً منه أن الخلاف بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا لا يمس بريطانيا وممتلكاتها ولا يؤثر على مصالحها . . . ومنها أن رئيس وزارة انكلترا المستر تشمبرلن ، شيخ جليل ، يعتقد إمكان التفاهم مع الدول الدكتاتورية ، ويحب السلام الأوربي ، ويرغب في تحقيقه بأي ثمن كان ...

* * *

أمام هذه الوضعية الحربية التي تحذر من خوض غمار حرب أوربية ، وإزاء هذه النفسية التي ترغب في اجتنابها ، اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى عدم المغامرة في حرب أوربية . وقام